





إعداد: مبارك عبدالله



قامة شعرية إسلامية التوجه (٢من٢)

أبو القاسم الشابي بعد قرن من الزمان

تناولنا في الحلقة السابقة نشأة الشاعر وملامح شخصيته وتوجهاته، واليوم نحلق في آفاق شعره، ففي قصيدته «شعري» يرسم أبو القاسم الشابي سمات شعره وأهدافه بكل وضوح، وهو ما يتنافى وتعريف التغريبيين.

عبد الباقي خليفة

للشعر، فيقول:

ما الشعر إلا فضا
ء يرف فيه مقالي
فيما يسر بلادي
وما يسر المعالي
وما يثير شعوري
من خافقات خيالي

وفي قصيدة «الصيحة» يحدد الشابي موقفه من مجد الأمة وتراثها العريق:

ياقوم ما لي أراكم
قطنتم الجهل دارا
أضعتم مجد قوم
سادوا الحياة فخارا
أبقوا سماء المعالي
بما أضاؤوا منارا
حاكوا لكم ثوب عز
خلعتموه احتقارا
ثم ارتديتم
لبوس خزي وعارا

الحياة عند أبي القاسم الشابي

في قصيدته «نظرة في الحياة» يحذر الشابي من الركون للضعف، ويشيد بالقوة، ويدعو لليقظة والفطنة، ويؤكد أن الروح الوثابة لا تطفئها المتاعب والإكراهات:

من السكينة روح
في الليل ليست تضام
والروح شعلة نور
من فوق كل نظام
لا تنطفئ برياح
الإرهاق أو بالحسام

حتى يقول:

والذل سبة عار
لا يرتضيه الكرام

وكما نعلم جميعاً فإن ديوان الشابي لم يُجمع إلا بعد وفاته، وكان ينشر قصائده في جريدة «النهضة»، وقد اختلطت بعض القصائد الأخرى لشعراء آخرين لم يشتهروا مثل الشابي مع قصائده.

والقصائد الوحيدة التي يمكن أن تنسب للشابي هي التي لا تزال مكتوبة بخط يده، وقد عاب كثير من النقاد المسلمين على الشابي ذلك البيت الرائع الذي يقول فيه:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

بما أن القدر يستجاب له ولا يستجيب لأحد، وقد استلهم الشابي قوله حسبما أفهمه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(الرعد:١٢) وسواءً أصاب أو أخطأ في ذلك، فعلينا أن ندرك أن الرجل اجتهد، وإيمانه بالقدر يجبّ ما تصوره عنه إن كان قد أخطأ فعلاً.

وفي قصيدة «غرفة من يم» يبدع الشابي في تصوير الهمم، وكأنه يباري المتنبي في قوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم

فيقول:

ضعف العزيمة لحْد في سكينته
تقضي الحياة بناه اليأس والوجل
وفي العزيمة قوات مسخرة
يخر دون مداها الشامخ الجبل

في شعره فلسفة عميقة تعكس نظرته للكون والحياة والإنسان وتجسد عواطف المسلم وموقفه من قضايا عصره

والناس شخصان: ذا يسعى به قدم
من القنوط وذا يسعى به الأمل

ولا يتوقف الشابي عند الحديث عن الواقع، بل يستشرف الأمل في المستقبل:

ولكن سيأتي بعد لأي نشورها
وينبثق اليوم الذي يترنم
هو الحق يغفي ثم ينهض ساخطاً
فيهدم ما شاد الظلام ويحطم

دفاع الشابي عن الفضيلة

في قصيدته «أبناء الشيطان» يقول الشابي:

كم فتاة جميلة مدحوها
وتغنَّوا بها كي يسقطوها
فإذا صانت الفضيلة عابوها
وإذا باعت الخنا عبدوها

وفي قصيدة «يا حماة الدين» يقول الشابي:

سكتم حماة الدين! سكتة واجم
ونمتم بملء الجفن والسيل داهم
سكتم، وقد شمتم ظلاماً، غضونه
علائم كفر ثائر ومعالم
مواكب إلحاد وراء سكوتكم
تضج وها إن الفضاء مآثم

ويدعو العلماء ليمارسوا دورهم في المجتمع:

أفيقوا فليل النوم ولى شبابه
ولاحت لآراء الصباح علائم
فدون ضجيج الفاسقين سكينة
هي الموت، مما أورثته التمائم
عوائد تحيي في البلاد نوائبا
تقدّ قوام الدين والدين قائم

وبحرقة الشاعر المسلم يواصل الشابي نداءه حتى اليوم:

أفيقوا وهبّوا هبة ضيغمية
ولا تحجموا فالموت في الجبن جاثم
فقد فت في زند الديانة معشر
أثاروا على الإسلام من قد يهاجم
لحى الله من لم تستثره حمية
على دينه إن داهمته العظائم

الشابي عدو الطواغيت

وكأي شاعر مؤمن لا يخفي أبو القاسم الشابي حزنه وكآبته من أوضاع شعبه وأمته، بل يعتبر حزنه فريداً وغريباً في عوالم الحزن:

كآبتي شعلة مؤججة
تحت رماد الكون تستعر
سيعلم الكون ما حقيقتها
ويطلع الفجر يوم تنفجر

وعندما يعلن الشاعر الاستسلام الظاهري بعد النداء، فلا يعني ذلك سوى استمرار النداء، رغم ما يبدو من خيبة أمل:

لما ناديت ولم ينفع
وناديت أمتي فلم تسمع
رجعت بحزني إلى وحدتي
ورددت نوحي على مسمعي
وعانقت في وحدتي لوعتي
وقلت لنفسي: «ألا فاسكتي»

ولم يكن أمر السكوت سوى مرحلة جديدة من الحوار الداخلي والأمل:

يا قلب لا تسخط على الأيام فالزهر البديع
يصغي لصيحات العواصف قبل أنغام الربيع

وفي شعر الشابي فلسفة عميقة تجسد عواطف المسلم وموقفه من قضايا عصره، وفي قصيدته «إلى الطاغية»، وكأنه يقصد طاغية اليوم التي يجسد فيها حزنه:

لك الويل يا صرح المظالم من غد
إذا نهض المستضعفون وصمموا
إذا حطم المستعبدون قيودهم
وصبوا حميم السخط أيان تعلم

الشعر والثقافة عموماً عابران للتاريخ وللعصور، فما زالت المعلقات تدرس وتترجم للغات العالم، ولا يزال فلاسفة وحكماء مثل «بيدبا» و«سقراط» الذي «يحيا» كما يقال، كلما ظهر فيلسوف جديد، وتلميذه «أفلاطون» الذي قال عنه الفيلسوف الإنجليزي المعاصر «وايتهيد»: «الفلسفة منذ ٢٥٠٠ عام ليست إلا تعليقاً على مؤلفات أفلاطون»، لكن المعقدين من الماضي دون القدرة على صنع شيء يهزون بما لا يعلمون.■

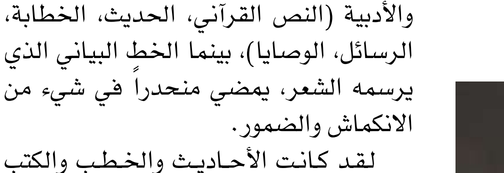
بين يدي السلطان..
حديث حول النكبة

شعر: محمود مصلح

مَولايَ جئتُ.. بمَسألَةْ ... تَبْدو بعَيني.. مُعضلةْ
فَأتَيتُ مَنْ ظَنّي.. بهِ ... بِيَديهِ حَلُّ.. المُشْكلةْ
فَلَديكَ أنْتَ.. أداتُها ... فرجارُها.. والمِنْقَلَةْ
ما نَفْعُها إنْ.. أَدْبَرَتْ ... وَبِكُمْ نَراها.. مُقْبِلَةْ
فَلأَنْتَ فَلْتُةُ.. عَصْرِنا ... وَلأَنْتَ رَمْزُ الْمَرْحَلَةْ
وَلَدَيْكَ «كارزْما».. بِها ... تَسْمو لأَرْفَعِ مَنْزِلَةْ
وَلأَنْتَ فيكَ.. حَمِيَّةٌ ... وَلأَنْتَ مِنْكَ.. الْمَرْجَلَةْ
وَلأَنَّني في.. وَرْطَةٍ ... لا أَسْتَحِقُّ الْبَهْدَلَةْ
وَقَضِيَّتي مُنْذُ.. ابْتَدَتْ ... حَتَّى النِّهايَةِ.. مَخْجَلَةْ
أَتُحِبُ أَنِّي في.. الْوَرى ... أَمْسَيْتُ، عَفْوَكَ، مَهْزَلَةْ..؟!
لا يَأْبَهونَ لِحالَتي ... في الدُّرجِ تَقْبَعُ.. مُهْمَلَةْ
لا لَنْ أُطيلَ وَقِصَّتي ... سَأَقولُها لَكَ.. مُجْمَلَةْ
داري بِقَبْضَةِ.. غاصِبٍ ... كُلُّ النَّوافِذِ مُقْفَلَةْ
آلَتْ لَهُ حُجُراتُها ... حَمَّامُها.. وَالْمَغْسَلَةْ
صالونُها مِلْكٌ لَهُ ... مِرْآتُها.. وَالْمِكْحَلَةْ
مِفْتاحُها في.. جَيْبِهِ ... وَبِها السَّتائِرُ مُسْدَلَةْ
مالي بِها حَقٌّ سِوى ... نَقْلُ الأَذى.. لِلْمَزْبَلَةْ
بِالْبابِ تَلْقاني مَتى ... نادى ارْتَدَيْتُ.. الْمِرْيَلَةْ
وَلَئِنْ شَكَوْتُ مَهانَتي ... نَصَبَ «الْبَعيدُ».. الْمَقْصَلَةْ
رَدَّ الْمُفَدَّى.. باسِماً ... ما قُلْتَ لَيْسَ بِمُعْضِلَةْ
كُلٌّ سَيَلْزَمُ.. حَدَّهُ ... وَالصُّلْحُ يُنْهي الْمُشْكِلَةْ
وَاقْبَلْ «بُنَيَّ» نَصيحَتي ... إِذْ لا لُزومَ.. لِبَهْدَلَةْ
كُنْ واقِعِيًّا واسْتَمِعْ ... لِنِداءِ عَقْلِ الْمَرْحَلَةْ!



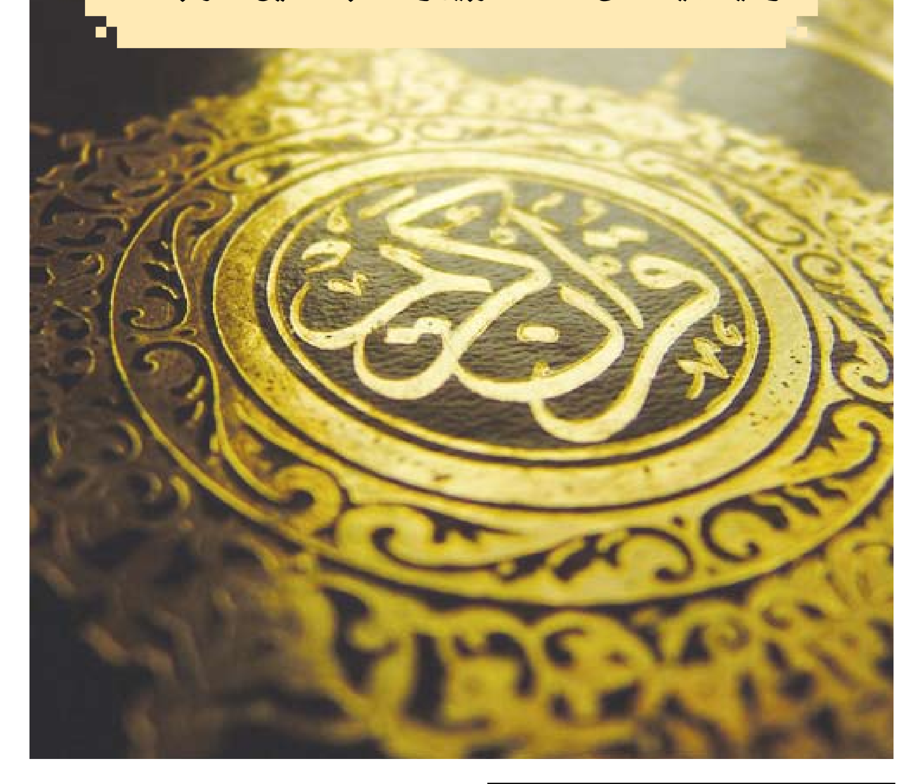




في صدر الإسلام..

أثر القرآن في نماء النثر وضمور الشعر

بدأ الأدب العربي (شعراً ونثراً) مرحلة جديدة من مراحل حياته.. منذ أن بدأ الرسول ﷺ يردد الآيات الأولى التي أوحيت إليه، على أهله الأقربين وأصحابه الذين آمنوا به.



د. محمد عبدالهادي رمضان

هذا التغيير الذي لحق الحياة الأدبية يمكن إرجاعه إلى العوامل التالية:

العامل الأول: القيم التي بشر بها النص القرآني، والمفاهيم التي دعا اليها.

العامل الثاني: أن الإسلام يختلف عن الأديان الأخرى، في أن معجزته العظمى كانت معجزة بيانية، وأنه استفز قوى الإعجاب في نفوس العرب، من هذا الفن القولي، حيث غدا الأدب هو الإطار الذي انسكبت فيه صور الفكرة الإسلامية.

العامل الثالث: أن الدعوة الإسلامية انساحت إلى الشام والعراق، وإلى ما وراء ذلك من فارس وبيزنطة.. ونشرت لغتها ودينها، وشهدت في هذه المواطن كل جديد دهشت به وتفاعلت معه، وكان له في حياتها الفنية آثاره القريبة أو البعيدة.

إن النظر الفاحص إلى ما وصل إليه كل من الشعر والنثر في صدر الإسلام يضعنا أمام صورة واضحة لاتجاه متعاكس، يشير إليه كل من هذين الفنين سيراً منفرداً.

فالنثر الفني يمضي صُعداً، تتضافر على نموه كل مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية (النص القرآني، الحديث، الخطابة، الرسائل، الوصايا)، بينما الخط البياني الذي يرسمه الشعر، يمضي منحدراً في شيء من الانكماش والضمور.

لقد كانت الأحاديث والخطب والكتب والوصايا النبوية، وكذلك خطب الخلفاء وكتبهم إلى الولاة علاوة على ما كان يدونه العرب عقب الغزوات، كل هذا كان له أثر كبير في ازدهار النثر.

وإليكم خطبة أبي بكر بعد توليه الخلافة كنموذج للنمو الذي وصل إليه النثر:

فقد حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أيها الناس إني وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

هذا النص يمكن أن يُعد - بالتعبير الحديث - (البرنامج السياسي للحكم الجديد)، ويتضمن أن هذه المرحلة التي سيؤسس لها، غير منقطعة عن المرحلة التي سبقتها .

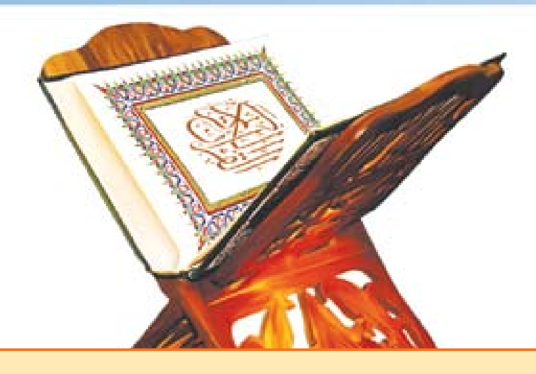
ويروى أن عمر رضي الله عنه كتب إلى لبيد قال: أنشدني ما قلت في الإسلام. فانطلق لبيد، فكتب سورة البقرة في صحيفة وقال: أبدلني الله عز وجلّ بهذه في الإسلام مكان الشعر(١).

إن المغزى الذي نأخذه من هذه القصة أن القرآن الكريم كان تعويضاً فنياً عن الشعر.. وهنا يثور سؤال وهو: كيف استطاع المسلمون التعويض بالقرآن عن الشعر؟(٢).

والجواب أن الشعر الجاهلي كان ممثلاً للحياة الجاهلية وتقاليدها: في ألفاظه ومعانيه وصوره وتشبيهاته، وفي القيم التي تكمن فيه.. لذلك كان لا بد أن يجد المسلمون ما يعوضهم عن الشعر، وقد وجدوا ضالتهم في القرآن.

لقد شهدت الجماعة الإسلامية هذا التيار من الترغيب بالقرآن والاكتفاء به، لا من حيث إنه كتاب الدعوة فحسب، بل من حيث إنه في روعته البيانية، فوق ما ورث العرب من تليد الشعر، وأن سحره الأدبي ليجاوز طاقة البشر..

وقد اتجه القرآن بالعرب المسلمين إلى النثر بعد أن أصبح هو الأداة التي تقتضيها مصلحة الدعوة والدولة معاً في ظل الحياة



في ظل الانشغال بالفتوحات الإسلامية لم يلق الشعر الأرض الخصبة والجو المناسب

المسلمون وجدوا في القرآن الكريم ضالتهم واستعاضوا به عن الشعر الجاهلي

النص القرآني والحديث الشريف والخطابة عوامل ساهمت في نمو النثر الفني

الجديدة التي أفاءها الإسلام على العرب.

لقد تغير المثل الأعلى للبيان العربي إذاً: في درجته حين جاء هذا القرآن المعجز، وفي نوعه، فلم يعد شعراً فحسب وإنما أصبح نثراً وخطابة، وكان ذلك كله كفيلاً بأن يباعد بين العرب وبين الشعر ولو إلى حين إلى أن يأتي العصر الأموي، وتقتضي الحياة بعض الانقلاب في المفاهيم الفنية(٣).

حركة الفتوح وضمور الشعر

لم يقتصر الأمر على انصراف العرب عن الشعر إلى تدارس القرآن، وإنما تجاوز ذلك إلى حركة المد الإسلامي، التي تتجاوز الجزيرة العربية أيام أبي بكر إلى مهاجر العرب من قبل في الجاهلية، في الشام والعراق، ثم تعدو ذلك أيام عثمان إلى ما وراء الفرات ودجلة من أرض فارس، وإلى ما وراء حدود الشام من ولايات بيزنطية.

حركة الفتوح وما رافقها من جو معنوي أو مادي، استنفدت طاقة العرب النفسية لتصرفها في هذا الميدان، ولم تكن تتيح للعرب وقتذ أن ينصرفوا عنها إلى أنفسهم.. وكانت هي كل حياتهم الداخلية والخارجية على السواء، فقد امتلكت أذهانهم فكرة السعادة أو الشهادة.

يقول ابن سلام: «جاء الإسلام فتشاغلت العرب عن الشعر، تشاغلوا عنه بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته»(٤).

كان المسلمون دائماً في أحد موقفين: موقف المهاجم، أو موقف المدافع، فلم تجد الكلمات الشعرية سبيلاً للتحليق والازدهار...

والمتأمل في قراءة شعر الفتوح، من خلال الروايات التاريخية تتيح لنا أن نجمع نوعين اثنين كبيرين، هما:

أ - شعر البطولة: فهو يهدف إلى الإشادة بما كان من إقدام الشاعر أو من قوة الكتيبة، وكان يصوّر أحياناً قسوة المعارك وشدة اللقاء، وما كان من أحداث خلال الفتح، وما انتهت إليه من هزيمة أو نصر، وما كان من إحجام أو إقدام.

ولا يخرج شعر البطولة هذا عن أن يكون لوناً من ألوان الفخر الذي عرفته الحياة الجاهلية، غير أنه قد اكتسا هذا الصبغ الإسلامي الخفيف أو القوي، فهو يتحدث عن الإسلام والدين، وهو يذكر الله والرسول ﷺ، وهو يصدر عن روح الجماعة، أكثر مما كان شعر الفخر الجاهلي يصدر عن روح الفرد أو القبيلة.

ب - شعر المواجد: فهو تعبير عن الأشواق التي كانت تملأ نفس المحارب، فهو يشتاق إلى مرابعه الأولى، ويحن إلى مواطنه التي أقبل منها، ويذكر أهله الذين خلفهم، ويتمنى لو كان قريباً منهم وإلى القارئ، منها هذه الأبيات (٥) كنموذج:

أكرر طرفي نحو نجد وإنني ... برغمي وإن لم يدرك الطرف أنظر
حنيناً إلى أرض كأن ترابها ... إذا أمطرت عود ومسك وعنبر
أحنّ إلى أرض الحجاز وحاجتي ... خيام بنجد دونها الطّرف يقصرُ

ج - الرجز: إلى جانب شعر البطولة وشعر المواجد، كان الرجز يشاركهما أحياناً في الموضوع ويخالفهما في الشكل.

تقييم شعر الفتوح: كان شعر الفتوح امتداداً للشعر الجاهلي، ولهذا لم يكن شعر البطولة إلا تجديداً لشعر الفخر وإن اختلف عنه في الواقع الاجتماعي الذي يطبعه، أما شعر المواجد والحنين فقد كان صورة متقدمة، كما يبدو، لشعر الأطلال والبكاء على الديار ونداء الأحبة.

أما الرجز فلم يتخذ في صورته الظاهرية من الشكل، ولا في بطانته الداخلية من الموضوع ثوباً جديداً، ولم يبعد خطاه بعد ليكون هذا الرجز الفني في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي.

مثال ذلك ما ارتجزه جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابُها
والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

هذه المعاني القريبة المتناول نجدها تتكرر بالمستوى ذاته في شعر عبد الله بن رواحة في المعركة ذاتها.

ونرى في هذا الدور من أدوار الأدب العربي تلويناً للأنواع الأدبية الجاهلية، ولكنه لا يرى تجديداً فيها.

إن ظلال الحرج التي ألقتها الحياة الإسلامية على الشعر اتجهت بالحياة الأدبية إلى النثر، وإلى تنمية هذا النثر ليكون نثراً فنياً .■

الهوامش

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني.
(٢) المجتمعات الإسلامية، لشكري فيصل.
(٣) طبقات الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، «جوزيف هل».
(٤) معجم البلدان، لياقوت الحموي.
(٥) الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، حبيب مغنية.

المراجع

(١) الأدب العربي في الجاهلية والإسلام، عمر رضا كحالة.
(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي.
(٣) تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، محمد نجيب البهيئي.
(٤) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي.
(٥) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، محمد عبد المنعم خفاجي.
(٦) النثر ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف.